العدالة والسياسة والحكم

د. محمد اياز نيازي
كلية الشريعة والقانون بجامعة كابول
افغانستان

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله واصحابه ومن والاه،

وبعد فلا شك ان العدالة وتحقيقها هي الحل لجميع الامراض التي ابتلي فيها البشر، ويعاني منها في جميع شئون الحياه.

اذا نظرنا- بالامعان- الى المصائب والمشاكل التي عمت البشرية والانسانية جمعاً، سواءً متعلق بالامن، او بالفقر، او بالمنازعات الاقليميه او الدوليه. او تتعلق بالمناخ الجوي...

فكل ذلك يعود الى الخلل في العدالة او فقدانها .. فالقوي سلب حريه الضعيف، او ارضه ووطنه، او يريد ذلك... فالكلمة النافذة هي كلمة القوي، السياده والقيادة في ايدي الاقوياء فالمنظمة الدولية في ايدي الاقوياء، ومجلس الامن في ايدي الاقوياء... فالانسان الذي يحترم، اواللجان الدوليه التي تدعي حقوق الانسان تعني انساناً معهودا معيناً لاكل انسان. فالقوي له حق التصرف كما يشاء وكيف يشاء، له حق ان يصنع قنابل نوويه، والضعيف ليس له ذلك، ليس هذا فقط، وانما يدمر لمجرد الاتهام ويحذف من خريطه العالم كما نشاهد ذلك باعيننا.

والقوي لا يلتزم باي قانون ولا حق لاحدان يعترض عليه في ظلمه وعدوانه حتي ولو افضى الى دمار الكرة الارضية. حتى ولو افسد مناخ الارض بمصانعه الهائلة... انما على الضعيف السمع والطاعة.

اذن فالعدالة وتحقيقها هي العلاج الاساسي سواء في السياسه المحلية او الدولية.

ومن صفاته (جل ذكره) واسمائه الحسني كلمة (العدل) ولهذا الاسم المبارك تجليات تتلألأ في جميع اجزاء الكون من الذرة الى المجرات والنجوم والكواكب

والمنظومات الشمسية، كما تتجلي في اعضاء الجسم الانساني والحيواني والنباتي، والجمادي وفي نظام الدورة الدموية من الكريات الحمراء والبيضاء في الدم...

نستمع في ذلك الى الداعية الاسلامي والعالم العارف بالله والذي آخي بين الدين والدنيا، بين السياسه والتصوف، وبين الروح والجسد كما هو حقيقه هذالدين... الشيخ بديع الزمان النورسي رحمه الله تعالي. هو يرى ان العدالة لا يمكن تحققها الا في حفظ التوازن ورعاية التناسق بين المد والجذر، وهذه القاعدة مع مفهومها الواحد تختلف اشكالها وصورها في الخلائق بما يناسب...

يقول: شبه هذالكون بقصر بديع يضم مدينة واسعة تتداولها عوامل التخريب والتعمير وفي تلك المدينة مملكة واسعة تغلي باستمرار من شدة مظاهر الحرب والهجرة وبين جوانح تلك المملكة عالم عظيم يسبح كل حين في خضم الموت والحياة.

ولكن على الرغم من كل مظاهر الاضطراب، فان موازنة عامة، وميزانا حساساً، وعملية وزن دقيق تسيطر على كل جوانب القصر ونواحي المدينه، وتسود في كل ارجاء المملكة واطراف العالم، وتهيمن عليها بحيث تدل بداهة:

ان ما يحدث ضمن هذه الموجودات التي لا يحصرها العدد من تحولات، وما يلج فيها ويخرج منها... لا يمكن ان يكون الا بعملية وزن وكيل وميزان من يري انحاء الوجود كلها في آن واحد، ومن تجري الموجودات جميعها امام نظر مراقبته في كل حين ذلكم الواحد الاحد سبحانه وتعالى.

والا فلو كانت الاسباب الساعية الى اختلال التوازن، سائبة او مفوضه الى المصادفة العشواء او القوة العمياء او الطبيعة المظلمة البلهاء، لكانت بويضات سمكة واحدة التي تزيد على الالوف تخل بتلك الموازنة... ناهيك عن تدفق العناصر الجاريه كالسيل، والانقلابات الهائلة، والتحولات الضخمة التي تحدث في ارجاء الكون... كل منها لو كان سائباً لكان مخلاً بتلك الموازنة الدقيقة المنصوبة بين الموجودات، ويفسد التوازن الكامل بين اجزاء الكائنات خلال سنة واحده بل خلال يوم واحد ولكنت تري العالم قد حل فيه الهرج والمرج، وتعرض للاضطراب والفساد. فالبحار تمتلي بالانقاض والجثث وتتعفن. والهواء يتسمم بالغازات المضرة ويفسد، والارض بصبح مزبلة ومسلخة...

فما العلوم التي توصل اليها الانسان الا ترجمة لذلك النظام البديع وتعبير عن ذالك التوازن الرائع فتامل في الموازنة الرائعة بين الشمس والكواكب السيارة الاثنتي

عشرة التي كل منها مختلفه عن الاخرى. انما تدل هذه الموازنة دلالة واضحة وضوح الشمس على الله سبخانه وتعالى الذي هو(العدل القدير).

ثم تامل في الارض وهي احدي الكواكب السيارة هذه السفينة الجارية السائحة في الفضاء (تجري بسرعة هائلة) ومع هذه السرعه المذهله لا تبعثر المواد المنسقة على سطحها ولا تضطرب بها، ولا تطلقها الى الفضاء... فلو زيد شئ قليل في سرعتها او انتقص منها لكانت تتقذف (بساكنيها) الى الفضاء واخلت بموازنتها لدقيقه بل لثانيه واحده لتعثرت في سيرها واضطربت ولربما اصطدمت بغيرها من السيارات ولقامت القيامه. (من رسائل النور مع شي من التصرف).

ثم يذكر الشيخ رحمه الله التوازن بين التوالد والوفيات للحيوان والنبات وحياتها على الارض. وكذلك بين اعضاء جسم كائن حتي في ادق اجهزته ونسجته... وكذلك بين حجيرات الجسم، واوعية الدم والكريات السائحة، ... ويقول بعد ذكر كل هذه الاسرار: تدل دلالة قاطعة على الخالق العادل الرحيم. ويقول ايضا: تدل على الصانع الذي هو العدل الحكيم. ويقول ايضا: وهذه الموازنة لا تثبت الا بميزان حساس وبقانون نافذ صارم للخالق الواحد الاحد العدل الحكيم.

ثم يستنبت بقوله: ان العدالة العامة الجاريه في هذا الكون النابعه من التجلي الاعظم لاسم (العدل) انما تريد موازنة عموم الاشياء وتامر البشرية باقامة العدل. وان ذكر الميزان اربع مرات في سورة الرحمن... اشارة الى اربعة انواع من الميزان في اربع مراتب، وبيان لاهمية الميزان البالغة ولقيمه العظمى من الكون وذلك من قوله تعالى؛ ﴿ والسماء رفَعها وَوَضَع الميزان * الاَّ تَطْغَوا في الميزان * وَاقِيمُوا الوزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِروا الميزانَ ﴾ (الرحمن: ٧- ٩).

فهذا التحليل العلمي الدقيق لمفهوم العدالة الحاصل من تجلي اسم (العدل) كما يتجلي في جميع اجزاء الكون بلا استثناء من البعد الظاهري والحسي، فلا بد وان يشمل العدالة في السياسة والحكم والعلاقات الاجتماعية بين الناس، من البعد الباطني او العقلي.

ومعنى ذلك؛ ان الا نسان- بمقتضي طبعه المدني- لا يمكن ان يعيش بمفرده ، وان يكون مستغنياً عن غيره في استكمال حوائجه الانسانيه. بل الحقيقه عكس ذلك حيث خلق الله تعالى الخلق مرتبطين بعضهم ببعض ومحتاجين بعضهم الى بعض، وذلك اقتضاءً لسنة الحياة وهي قوة الترابط والتعاون بين افراد المجتمع البشري، وقد اشار (جل ذكره) الى هذه الحكمة بقوله ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢).

وكل انسان له حقوق وعليه واجبات، فلا حق بلا واجب، ولا واجب بلا حق.

والانسان بطبعه الحريص قد لا يقتنع بما عنده، ويتجاوز في حق الآخرين. وهذا الامر اقتضي وجود ادارة قوية عادله ان تتكون من افراد صلحاء، امناء، اتقياء، واقوياء، وهذه الادارة هي الحكومة المكلفة بتطبيق شريعة الله بين عباده، وبحفظ التوازن بين الحقوق والواجبات، واسترداد حق المظلوم المغلوب من الظالم الغالب، وبحفظ التوازن بين الجريمة والعقوبة، وبين الجبران والخسارة وغير ذلك. فمفهوم العدالة في الاسلام لا يقيد بدين دون دين، ومذهب دون مذهب وقوم دون قوم، وقبيله دون قبيله وعنصر دون عنصر... بل العدالة تقع فوق جميع الفوارق المذكورة.

قال الله تعالى :- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥)

و يقول جل ذكره:- ﴿ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائده: ٨)

وقال جلت عظمته:- ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨)

وقد امر الله تعالى انبياءه لتحقيق العداله بين الناس فقال تعالى مخاطباً لنبي داود عليه السلام:- ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ الله إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦)

و قال مخاطباً حبيبه ورسوله محمداً ρ:- ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله ﴾ (النساء: ١٠٥)

وكان تحقيق العداله من اهم الاهداف التي لاجلها بعث الله الانبياء والمرسلين. قال الله تعالى:- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥)

و اذا نظرنا الى التاريخ الاسلامي فنجد ان اهم العناصر والاسباب الموثرة في نشر الاسلام شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً هو عدالة الاسلام، ليس فقط في اوساط المسلمين بل بين غيرهم حتي ولو كان الحق في جانب غير المسلم في مقابل خليفه المسلمين. وقد سجل التاريخ ذلك في طيه بماء الذهب وذكر اروع الامثلة- ومنها:

ان علياً رضي الله وجد درعه عند يهودي فاقام الدعوي عند القاضي شريح (رح). فلما حضر امير المومنين على (رض) واليهودي في الجلسة القضائية. سال القاضي علياً (رض) عن الشهود. فقال: الشاهد لي ابني، فرد القاضي شهاده ابنه،

اولاً- شهادة الابن لا تقبل للوالد.
ثانياً ان نصاب الشهادة رجلان، او رجل وامراتان.
و قضي بالدرع لليهودي- وصار ذلك سببا لاسلام اليهودي.
و وضع الجزيه امير المومنين عمر (رض) الجزية عن ضعفاء اهل الذمه.
و لما اشتكي نصراني تاجر من احد عمال عمر (رض) الذي كان في الحدود بانه طلب منه العشر او الضريبة مرتين، كتب امير المومنين الى عاشره الا يفعل هكذا. وكان هذا سبب اسلام النصراني التاجر.

فسيادة المسلمين وقيادتهم للعالم كانت بنية على اساس العدالة التي هي روح هذا الدين وسبب وسعته في العالم، ودخول الناس فيه افواجاً.

فلما غابت تلك الروح، واختفي نور العدالة، وظهرت ظلمات الظلم، وسقطت الخلافة فقد المسلمون سيادتهم وعظمتهم، وبالتالي ساءت احوالهم ووضاع كيانهم.. فصارت الامة التي تضحك بها الامم، وتداعت بها الامم كما تتداعي الاكلة الى قرصتعها- كما خبر بذلك الصادق الامين صلي الله عليه وسلم- ولا يمكن صلاحها ونجاتها من هذا الذل والهوان، والضعف والتخلف، والجهل والتشتت، الا بما اصلح اولها وهو الاعتصام بحبل الله المتين والاتباع لهدي سيد المرسلين الذي يضمن لها السعاده والسياده في الدنيا والآخرة..

الخلاصة:

ان العدالة في السياسة والحكم لا يمكن تحققها الا بواسطة حكومة متكونة من الامناء والصلحاء والتي هدفها الرئيسي تطبيق شرع الله، وتحقيق العدالة بين الناس بلا فرق بين قريب وبعيد، وبين فقير وغني، وبين قوي وضعيف، وبين مومن وكافر...

و من الصور التي تتحقق فيها العدالة:

١- رعاية التوازن بين الحقوق والواجبات
٢- رعاية التوازن بين الجريمة والعقاب
٣- رعاية التوازن بين الجبران والخسارة
٤- رعاية التوازن بين استرداد حق المظلوم من الظالم.

برجاء ذلك اليوم
وماذلك على الله بعزيز
وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله واصحابه اجمعين